تطور التقاليد
وتطور التفكير

لحضرة صاحب السعادة علي جمال الدين باشا

كل شيء في هذه الحياة يتطور ، ويتناوله التغيير والتعديل ، والتقاليد تتطور ككل شيء ، كلما مر الزمن وتغيرت الأحوال ، وجدّت أفكار تؤثر في المجتمع وفي الظروف التي تحيط به .

إلا أن تطور الأفكار أسرع من تطور التقاليد وأكثر حركة وعنفا ، فإن نظرية من النظريات العلمية أو فكرة من الفكر الفلسفية قد تحدث انقلابا علميا أو فكريا ، ولكنها لا تحدث مثل هذا الانقلاب في التقاليد الاجتماعية ، وقصارى ما تصل إليه أن تكون ذات تأثير في هذه التقاليد .

وكل حضارة من الحضارات البشرية ، يمكن تقسيمها قسمين : ثقافة ومدنية .

فأما الثقافة فتشمل الدين والفن والأساطير كما تشمل القواعد الخلقية والتقاليد الاجتماعية وما يتصل بها من أوضاع الحياة اليومية الخاصة والحياة الروحية العامة .

وأما المدنية فتشمل النظريات العلمية والفنون التطبيقية ، وكل ما يتصل بالفكر المجرد أو الحياة العملية من أوضاع .

وهذا التقسيم ليس حاسما ولكنه ملحوظ ، فالشعوب تستطيع أن تتبادل العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية ، كما تتناول المذاهب الفكرية بلا صعوبة ، ودون أن تبدو هذه الأفكار والنظريات غريبة عن موطنها أو مرتدية غير ثوبها . ولكن العقائد والفنون والاخلاق والعادات لا تستطيع أن تنتقل من بيئتها الى بيئة أخرى دون أن تشعر بشيء من الغربة كثير أو قليل .

هذه ظاهرة ملحوظة في انتقال الثقافات والمدنيات بين الشعوب قديما وحديثا . وهناك ظاهرة أخرى ملحوظة كذلك في محيط الشعب الواحد ، وهي أن النظريات العلمية والمذاهب الفكرية دائبة التطور سريعة التغير ، أما الكيان الروحي والتقاليد الاجتماعية فتتمتع بشيء كثير من الثبات والاستمرار والمقاومة

وكلتا هاتين الظاهرتين طبيعية ونافعة . فأما أنها طبيعية فلأن الفكرة يسهل قبولها في العقل كما يسهل تغيرها بظهور فكرة أخرى ، والنظريات العلمية خاضعة للتجربة تنفيها او تثبتها ومن العبث التعلق بها بعد بيان بطلانها

أما العقيدة وأما التقاليد وأما الاتجاهات الفنية والخلقية فمن الصعب اعتناقها ومن الصعب كذلك التخلى عنها . والتقاليد تنشأ من العقيدة والعادة ، وتأصل العادة فى النفس الإنسانية لايكون إلا بالتكرار فى أزمان طويلة .

وأما أنها نافعة فلأن الفرد والأمة لايضيرهما شيئا أن يأخذا بالفكرة بعد الفكرة ، وينتفعا بالتجربة العلمية بعد التجربة . ولكن يضرهما كثيرا ويقلق حياتهما أن يعيشا فى ظل عقيدة مضطربة وأخلاق مقلقة وتقاليد مضعضعة .

ونخلص من هذا كله الى نتيجة مقصودة : هى وجوب احتراسنا فى نقل الأخلاق والتقاليد وطرائق الفنون الأجنبية كلما نقلنا الحضارة المادية والنظريات العلمية . فذلك شىء وهذا شىء آخر فى حياة الشعوب

على أن تحقيق هذه النتيجة ليس من السهولة كما يبدو من هذه التفرقة . فالنفس الإنسانية وحدة يصعب تقسيم قواها المختلفة ، ومحاولة التقسيم تحتاج إلى قوة فى الإرادة ونضج فى الفهم وتدرج فى الأخذ بالجديد من كل شىء تدرجا يتفق مع الموروثات القديمة ولا يصطدم معها اصطداما عنيفا ينشئ القلق والاضطراب .

ولكننا نندفع اندفاعا شديدا فى تقليد الغرب ، غير مراعين هذه التفرقة بين الثقافة والمدنية وبين الروحيات والماديات .

وفينا من يقول : إننا قد أخذنا من الغرب أدواته وآلاته فيجب أن نأخذ كذلك تقاليده وعاداته . وقد حدث بالفعل أن أوساطا كثيرة فتنت بريق هذا المنطق العقلى ، وغلبها التقليد الاجتماعى ، فسارت مسرعة مندفعة فى هذا التيار الشديد .

وهؤلاء المتحمسون لأخذ كل شىء وتقليد كل شىء ينسون الحقيقة الواقعة ، وهى أن الشعوب تخضع فى تقاليدها لعوامل غير فكرية ، تخضع للعقائد الكامنة فى النفوس ، وتخضع للعادات التى تكونت بمرور الزمن فى آلاف السنين ، وتخضع لعقلها الباطن الذى لا يسيطر عليه الفكر والمنطق .

وليس يكفى أن ألبس الثوب الإفرنجى لأصبح افرنجيا فى شعورى وإحساسى ، بل لا بد من الزمن الطويل والبيئة المتشابهة والعوامل الخفية التى تعمل فى بطء وعلى مهل لتغيير الشعور وتبديل الإحساس .

على أن الشعوب الغربية قد لقيت عاقبة إسرافها فى المادية وإغفالها شؤون الروح ، وجاءت هذه العاقبة فى صورة الصراع الدموى القاتل بين شعوبها . وسبق هذا الصراع انحلال خلقى واجتماعى ، وبخاصة فى فرنسا التى كانت قد أوغلت فى البعد عن الدين وعن القيود الاجتماعية .

وكثيرا ما شكا كتابهم ومفكروهم من إهمال الروحانيات فى حياتهم، فلم يسمع لهم المندفعون فى تيار المدنية المــادية ، الغارقون فى الليالى الحمراء وللذائذ النكراء .

لقد اتجه الغرب اتجاها ماديا بحتا، فكانت النتيجة أن استخدم العلم فى تحطيم الحضارة ، والاختراع فى تكديس آلات التدمير وأدوات التخريب .

ولو كان للغرب " روح " لأحال هـذه الأرض فردوسا بالعـلم والاختراع ، ولخدم الإنسانية بمجهوداته الفكرية المنظمة . ولـكن الغرب جسد مادى دب فيه الفساد ولا بد له من روح تعيده الى الرشاد

إن هذه الروح التى تنقص الغرب مكنوزة عندنا فى الشرق. فنحن لا نزال — والحمد لله — بنجوة من جموح المــادية إلى الحد الذى ابتلى به الغربيون. ولا نزل نستمسك بخيوط كثيرة من ثقافاتنا الروحية التى يجب أن نستميت فى التعلق بها ، كما يجب أن نحاول إنقاذ الغرب المريض بالمــادية عن طريق كنوزنا الروحية .

إلا أننا مهددون من ناحية أخرى بطفرة فى التقاليد جاءتنا بها التقاليد التعسة التى أنشأتها المدنيات الصناعية فى بلاد غريبة عنا ، بعيدة عن جونا النفسى ومحيطنا الاجتماعى .

ومن هنا أصبحنا نرى فى المجتمع المصرى نوعا من التفكك والاضطراب العجيبين . ذلك أن التناسق والانسجام فى هذا المجتمع لا وجود لهما ، فلسنا شرقيين ولسنا غربيين .

ففى مصر حفلات ساهرة راقصة فى بعض الأوساط يبلغ الاختلاط فيها أشنع أشكاله وأقبح صوره، وفيها كذلك بيوت تحرم رؤية أبناء الأعمام والعمات لبنات الأعمام والأخوال. وهؤلاء وهؤلاء يعيشون فى عصر واحد وعلى بعد أميال .

لا بل إن التناقض ليبدو أوضح من ذلك . فلو فرضنا أن واحدا وواحدة من المتلاصقين فى المرقص أدركهما الأجل المعلوم ، لحرمت التقاليد دفنهما متجاورين فى مقبرة ، لأن المرأة لا تدفن مع رجل أجنبي ! ولوجد أهلهما الذين يسمحون بتلاصقهما فى الحياة أنهم لا يستطيعون مخالفة التقاليد بدفنهما متجاورين بعد الوفاة !

هذا مثل واضح للتناقض الصارخ بين تصرفات بعضنا وإحساسه الباطنى . وما أشك فى أن أولئك الذين يوغلون فى تقليد المجتمع الأوربى لا يناقضون الوسط فحسب ، ولكن يناقضون وجداناتهم وما كمن فيها من الوراثات الراسبة فى الأعماق .

أعتقد أنهم يضغطون عواطفهم الشرقية ضغطا شديدا ، وهم يرون زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم فى أحضان رجال غرباء . ومهما يكن كبتهم لحقيقة مشاعرهم ، فإن هذه الفرنجة قشرة ظاهرة تكمن تحتها مشاعرهم الحقيقية ، وقد تسبب لهم متاعب نورستانية وهيستيرية لا يعلمون أسبابها الأصيلة .

إن التقاليد والعادات فى حاجة إلى البطء والنضوج الهادئ حتى تتحور وتتغير، ولا يكفى فى تغييرها مجرد الاقتناع الفكرى أو الرغبة فى التجديد . فأثقال الماضى ، ورواسب العادة لا تكتسح اكتساحا ، ولكن تتفتت وتذوب بعد الزمن الطويل والعلاج الكثير . والزمن وحده أكبر المؤثرات .

على أنه من الخطل فى الرأى أن نحاول تفتيت شخصيتا الشرقية وتحطيم كياننا الاجتماعى لمجرد التقليد والتحلل من الوضع القومى الذى اشترك التاريخ والبيئة فى تكوينه .

فماذا نكون بعد أن نفلح فى هذا بعد الجهد الجهيد ؟

إننا لا نكون شرقيين ولا نكون غربيين . ولكنا نصبح خليطا عجيبا ومسخا شائها بين هؤلاء وهؤلاء .

ومحال أن نجد الاحترام الذى ننشده بين أمم العالم حين ذاك . فلا الشرق يعرفنا لأننا خلعنا رداءه ، ولا الغرب يقبلنا لأننا سنظل غرباء فى حقيقتنا عنه . وهذا هو الضياع والبوار .

لقد سبقتنا أوربا فى المدنية الصناعية ... هذا حق . ولكن هذا السبق ليس خيرا كله . فقد رأيناها تحيد عن التفكير السليم فتجعل من التقدم الصناعى وسيلة للتحطيم والتدمير . وقد برزت وحشية القرون الأولى من خلال المدنية الأوربية ، وانتكس العالم على يديها الى شريعة الغاب وقانون الأدغال .

أما الأخلاق وأما الروح فقد فسدت وتعفنت وضاعت تحت أكداس الآلات وأثقال الماديات ، فلا دين ولا أسرة ولا خلق ، ولا قيدا واحداً من القيود الاجتماعية التى تحبت الإنسانية فى صوغها لتصون بها كيانها وتكبح بها جماحها .

هذه أوربا اليوم جائعة مريضة منحلة متوحشة ينهش بعضها بعضا ، بعد سنوات كثيرة من القلق والحيرة والاضطراب ، أدت الى هذا السعار والولغ فى الدماء .

نعم سبقتنا أوربا فى المدنية الصناعية . ولكن كنوزنا الروحية الكامنة فى الدين والفن والتقاليد ليست قليلة ولا رخيصة . وليس لدى أوربا اليوم ولم يكن لديها فى أى وقت مضى ما هو أنفس منها . وهى مع ذلك مقومات شخصيتنا القومية ومميزات محتنا المعنوية . فالتخلى عنها نوع من نكران الذات واحتقارها .

وقد يكون فى بعض تقاليدنا جفاف وقسوة . ولكن هذا لم يكن شرا كله ، فقد صدّ تيار التقليد عن البيئة المصرية الصميمة فى الريف ، واحتفظ لمصر بشخصيتها الخالدة .

وربما كان من الضرورى تهذيب هذه القسوة ، ولكن يجب أن يسير هذا التهذيب برفق ويتمشى بحذر ، حتى يبقى المصريون مصريين ، فى عهد الوطنيات والقوميات ما

على جمال الدين